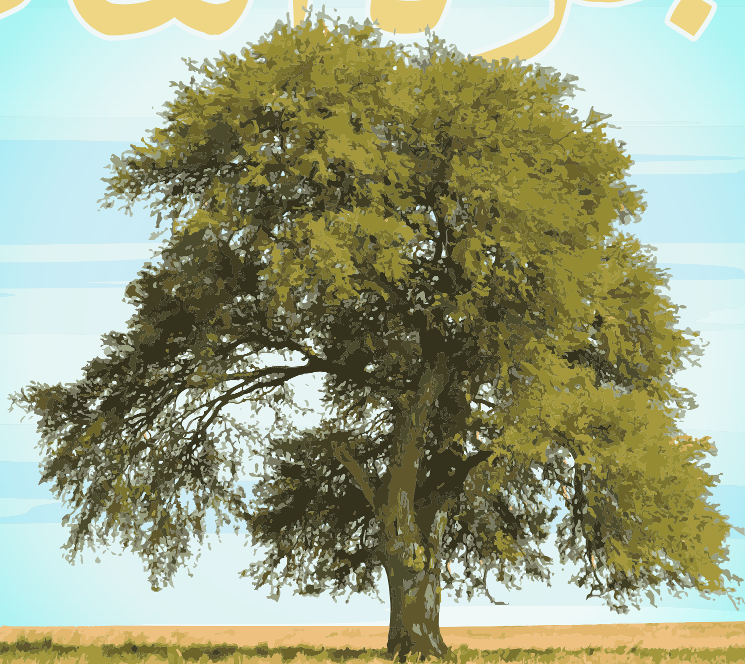
ساندت الأجداد فقدرها الأحفاد

شجرة الغاف



وديمة الدرمكي



قبل البدء، ليسمح ليّ القارئ بتعريف عن صاحبة هذه القصة أو الشخصية التي كانت وراءها وعاشت تفاصيل تلك الحقبة من الزمن، بكل ما فيها من أصالة ومكانة وقيمة حيث كانت الحياة ما زالت بكراً، والعلاقات الإنسانية صافية، والتواصل والتراحم والإخاء والمحبة الكبيرة تجمع الناس وتُلمهم في مكان واحد.

في تلك الحقبة من الزمن عاشت هذه الشخصية حياة مختلفة بالرغم من صعوبتها وقساوة الطبيعة من حولها، إلا أنها كانت سهلة وبسيطة وٍآمنة، فقد كانوا جميعاً كالجسد الواحد جيراناً وإخوة وأنسابا تجمعهم الأماكن مرة وتفرقهم مرة ليجتمعوا بعد ذلك مره أخرى من جديد فكلهم كانوا عشيرة وأبناء عمومة طافوا العديد من الأماكن فتركت في أرواحهم ذكريات جميلة.

والآن لنتوقف لنحكي قصة منطقة من المناطق التي ارتحلت إليها. فلكل مكان ارتحلت إليه ميزة وملامح خاصة، سواء كانت في شكل العراقيب أو الأشجار أو الآبار أو طبيعة الأرض أو حتى الناس والأهل.

لكن لا تزال ذكريات "رماح" مترسخة في ذاكرتي حيث تُعرف "رماح" بأنها محطة البدو، في الصيف أو الشتاء أحياناً، فيستظل بأشجار الغاف الكبيرة التي توجد في المكان، والتي تبدو كخيمة كبيرة شاسعة الحجم والأغصان حيث يربطون فيها حبال خيامهم ويثبتونها، ويوجد فيها بئر وعرقوب. فما من مارٍ قد سلك طريق العين ذاهباً أو عائداً إلى أبوظبي إلا وقد لفتت انتباهه تلك الشجيرات الست المخضوضة بين الكثبان الرملية الصحراوية. فهي شامخةٌ تقاوم ظروف الصحراء القاسية، وتمنح المكان شاعرية وصفاءً نادرين، وتؤنس الراحلين في وحشة الصحراء ولاسيما غافات "رماح" الست.

هكذا كانت "رماح"

ولنتوقف قليلاً حتى نتحدثُ عني!



فبالنسبة ليّ!

أنا شابٌ في مقتبل العمر يتيم الوالدين قد اخترت العيش والتنقل مع أهلي من البدو، وقد ارتحل في بعض الأحيان وحدي لمسافات قصيرة حتى استكشف الأرض والصحاري وأكسب من الأصدقاء الكثير.

وفي أحد الأيام قطعت مسافة تقارب () كيلو متراً قضيتها مشياً وترحالاً إلى المجهول وكنت أقطع في اليوم مسافة (٠) كيلو متراً وقد استغرقت رحلتي ما يُقارب اليومين حتى أصل إلى "نقره" التي هي المنطقة الرملية التي تعرف بملامحها الخاصة سواء في شكل العراقيب والتلال أو الأشجار أو الآبار وطبيعة الأرض بحد ذاتها.

وكانت هذه المنطقة تشتهر بأنها محطة لاستراحة الحضاضير القادمين من العين والعائدين إلى أبوظبي.



فشددتُ الهمة وهرولت نحوها مستكشفاً المكان، فإذا بشجرة غافٍ كبيرة الحجم تستحوذ على أغلبية مساحة المكان وتُشعر الناظر بالأنس والاستقرار. ففي هذه الفتره لا أنسى أيام الخير التي كنا نعيشها حيث أننا أتخذنا هذه الأماكن آنذاك سكناً لنا في هذه المناطق.

فإذا بي ألّعب معها وحولها حتى يحين وقت المغرب، وأنام تحت ظلها وبعد ذلك أتسلق أغصانها كي ألتقط الحنبل لآخذه معي في طريق العودة إلى "رماح" لكي تحوله النساء إلى طحينة ونصنع منه خبزاً حلو المذاق.

ولقد تغير مجرى حياتي بعد ذاك اليوم فكنت أقضي أسبوعاً في "النقرة" وأسبوعاً آخر في "رماح" جاعلاً من يوم الجمعة والسبت يوماً للسفر بينهما فبعد صلاة الجمعة أهرول لأجمع أمتعتي سالكاً درب العودة.

ويمر الزمن بي، وبعد أن كبرت فلم يعد يهمني اللّعب والمرح، فقد قلّ ترحالي وذهابي إلى "النقرة" فعدت وأنا كسِيف الحال وقد كنت محتاجاً للمال، وموسم القيض لم يحن بعد كي أبيع الرطب وأكسب من ذلك المال الحلال.

وحين جلست تحت ظلها وأطلقت تنهيدة تعب فإذا بصوت يراودني ويناديني: أين كنت كل هذه المدة؟ تعال وتسلق أغصاني والعب تحت ظِلالي وخُذ من ثماري.



فضَحِكتُ بحسرة وقلت لم أعد صغيرًا لِألعب حوِلك، فأنا أريد بعض المال لأن عليّ ديون قد حان موعد سدادها، ولا ليّ حول ولا قوة، فلا أملك من المال إلا ما يُعينني ويُعين أُسرتي.

وإذا بالشجرة تُجيبني: أنا لا أملك المال، ولكنك قد تحتطب من جذعي، فقد حان فصل الشتاء وزاد الاحتياج إلى الضوء للتدفئة و غير ذلك من الاحتياجات الأخرى كالبناءِ والطبخ.

فارتسمت الابتسامة على وجهي وأنا أشكر الشجرة وأُسارع كي أجمع من الحطب ما أحتاج إليه وأسلك بعد ذلك طريقي عائداً الى الديار.

ثم تَمرُ الأيام ثانية وأعود إلى المكان نفسه محتاجًا، وقد أصبحت رجلاً لكنني في هذه المرة عُدتُ وأنا أحملٍ على كتفي طفلي، وزوجتي معها بِكرِيتُنا مريم ووقفتُ شاكيا همومي للشجرة، مردداً لها: ها قد اشتد الحر وجف الطوى فلم يعد هناك داعٍ للإستقرار وحان موعد الرحيل.

فإذا بالشجرة تقول لي: هذه هي أغصاني وجذوعي فاربط فِي حِبال خيمتك وثبتها وكما ترى هنالك الطوى، فهل تستقر هنا؟

همّت الأسرة بسعادةٍ تنصب خيامها، وترتب عفشها وتأخذ من المكان مأوى لها، فتعايشنا مع المنطقة وتأقلمنا عليها وعشنا حلوَها ومُرّها في كل الظروف والأحوال.

والآن حان موعد حلنا وترحالنا فكان الهاجس الذي يشغلنا هو تأمين الماء، فهو سر الحياة في الأرض التي نعيش عليها والذي بعد مدة من الزمن قد نتعرض للجفاف نتيجة استنزافه باستمرار بسبب احتياجاتنا وحلالنا من المواشي.

وإذا بنا نسمعُ يوماً من الأيام أصوات الرجال بالبشارة:

"ابشروا بالماء الحلو".

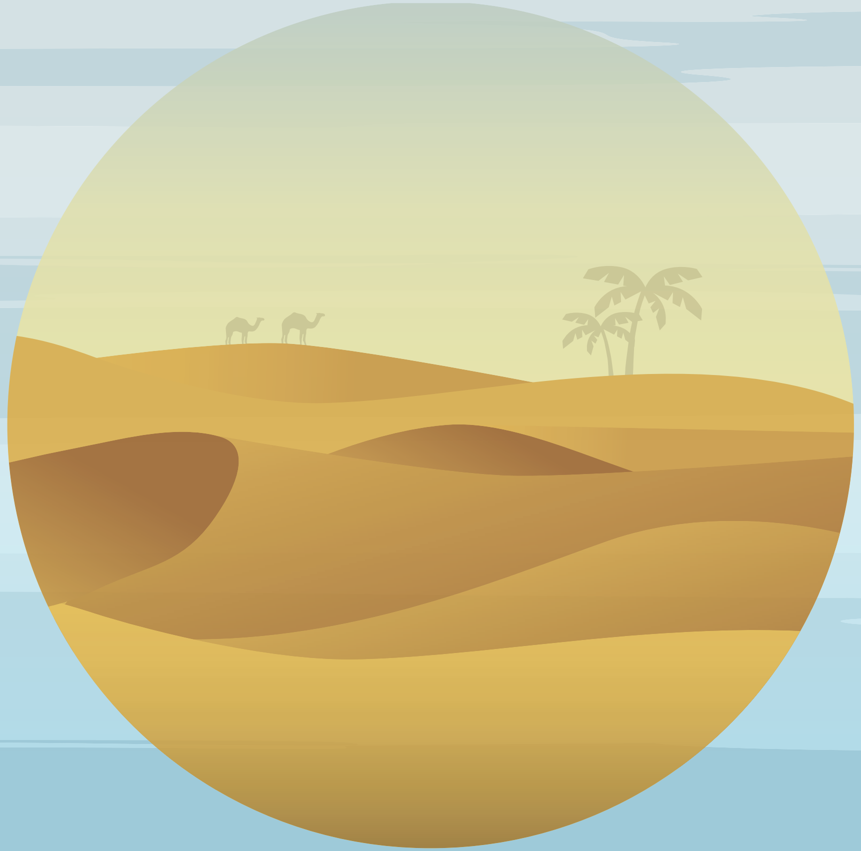
فقد كان للبدو خبرة واسعة في معرفة نوع التربة التي سيجدون فيها مياهاً عذبة ويمسكون بالمشاه، وهو وعاء مصنوع من خوص النخل يتم نقل الرمال به من مكان لآخر بعد الحفر باتجاه العين التي تظهر، وتتدفق العيون بعدها في الآبار من الشرق للغرب. ليكون هذا المأوى والمروى الجديد.





ومع مرور الوقت والأيام وتسارع السنين والدهور يقف ولدي محمد وأنا وقد أهلكني الشيب وكبُرت في السن أمام تلك الأشجار نتبادل أطراف الحديث و ليسألني محمد من هي تلك الشجرة؟

ضحكتُ وقلت بصوت قد بان عليه الاشتياق: هي تلك القبائل التي جاورتنا في البادية فقد عاشوا في فرجان مختلفة وهي كانت أحد تلك الفرجان حيث التعارف والتواصل والاجتماع على الخير والحب والتعاضد والتعاون على جميع الأعمال وتبادل الطعام والشراب والانتصار للجار إذا تعرض لأزمةٍ أو حادث ما. فقد كانوا رجالاً قد تتلمذوا على أيدي أكابر رجال القبائل البدوية فاكتسبوا منهم الشجاعة والمهابة والإقدام والكرم.



عـام التسـامح
YEAR OF TOLERANCE

شجرة الغاف

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية (E) التي
تلائم محتوى الكتاب وفقًا لنظام التصنيف
العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام.
موافقة المجلس الوطني للإعلام:
MC-03-01-8855096
رقم الإيداع ISBN:
978-9948-35-042-2

طبع بالمطبعة المتحدة بأبوظبي،
دولة الإمارات العربية المتحدة.



عملت على اكتشاف وتكريس ما لدي من مواهب، وأمسكت قلمي بين الحين والآخر اخطّ ما يجول في ذهني من أفكار، أنتجت بعض القصص والكتب، وها قد أنهيت كتابي الثاني (شجرة الغاف) التي قد كتبته ساعيةً لتكون بدايتها مع شخصية قد عاشت حقبة الثمانينات في منطقة أبوظبي والعين.

ودائما ما أضع على عاتقي خدمة الوطن حيث جعلت من التطوع أسلوب حياة لما يعود علي من نتائج إيجابية سواء كان على مستوى مدرستي أو في المجتمع، أنا وديمة جمعة حظيبة الدرمكي عضو المجلس الاستشاري للأطفال.